

# وحطت الفراشة

شهادة حياة لمعاناة غريس سعود  
مع مرض السرطان



# وحصت الفراشة

شهادة حياة لمعاناة غريس سعود  
مع مرض السرطان

سهيل سعود



ophir

## And the Butterfly Landed

First Edition Copyright © 2019 Ophir Printers & Publishers.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means— electronic, mechanical, photocopy, recording, scanning, or other— except for brief quotations in critical reviews or articles, without the prior written permission of the publisher.

Author: Suheil Saoud

### وحطت الفراشة

شهادة حياة لمعاناة غريس سعود مع مرض السرطان

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة

تأليف: سهيل سعود

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٣٣٨١ ٤٦٣ ٦٦٢٢+ ، فاكس: ٣٣٨٥ ٤٦٣ ٦٦٢٢+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo



رقم الإيداع: ٢٠١٩/٦/٢٧٦٣

ISBN 978-90-5950-273-4

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

## إهداء

إلى روح ابنتي وغاليتي ونور عينيِّ غريس...  
إلى مَنْ طالتها قساوة الدهر، وعدم عدالة الحياة...  
إلى مَنْ تألمت، فأبْتُ إلا أن تشكر الله وسط الألم...  
إلى مَنْ برحيلها، تركتْ في قلوب عائلتها غصّة لن تزول  
ودموعًا لن تجفَّ وجرحًا لن يندمل...  
ستبقيين، يا غاليتي، حاضرة معنا أينما كنَّا وحيثما توجَّهنا...  
ستبقى ابتساماتكِ وذكرياتكِ وسحرُ حضوركِ قوتنا اليوميِّ...  
لم نُعد نرى الحياة إلا بعينيك الطاهرتين وقلبك الحنون...  
يا معلّمتي، ليست الحياة في طول الأيام، وإنما في الأثر الذي  
يتركه الإنسان...  
رحلتِ في ربيعِ عمرك، لكنك تحوّلت إلى مدرسة لأصعب  
دروس الحياة...  
إليكِ، يا غاليتي، أُهدي كتابك: ”وحطّت الفراشة“.



## شكرٌ وعرّفان

أودُّ أن أتقدّم بالشكر الجزيل إلى كلِّ من أسهم على طريقتة، بفرح ودون مقابل، في إنجاز هذا العمل. وأخصُّ بالذكر:

الدكتور عصام رعد، الأستاذ المحاضر ورئيس قسم أمراض الالتهابات في مستشفى أم. دي. أندرسون المتخصّصة بأمراض السرطان، ورئيس خدمة العناية بالصحة ومؤسّسها في الشرق الأوسط، وذلك لقراءة الكتاب وتقديمه.

القسُّ الدكتور رياض قسيس، المدير الدوليُّ للمجلس الدوليِّ للتعليم اللاهوتيِّ الإنجيليِّ، لاختياره عنوان الكتاب.

السيدة الفاضلة نورما توما، المميّزة بسرعة عملها ودقّة ملاحظاتها، والتي عملت على طباعة نصِّ الكتاب.

وأخيرًا أشكر فريق عمل أوفير للطباعة والنشر؛ فبفضل تعاونهم وجهودهم، أبصر هذا الكتاب النور.





## الفهرس

- ١١ التقديم
- ١٥ مقدمة: لماذا كتبتُ هذا الكتاب؟
- ١٩ الفصل الأول: فراشة في حديقة عائلتنا
- ٢٥ الفصل الثاني: وحش المرض
- ٣٥ الفصل الثالث: تقبُّل واقع المرض
- ٤١ لفترة لاهوتية: القديس أغسطينوس  
أصل الشرِّ والألم وأسبابهما
- ٤٥ الفصل الرابع: إشراقه حياتها
- ٥٩ الفصل الخامس: ظلمة حاضرها
- ٧٥ لفترة لاهوتية: المفكر سي. أس. لويس  
مشكلة الألم
- ٧٩ الفصل السادس: معاناتها النفسية
- ٩٩ الفصل السابع: جسدها يخذلها

١٠٩	لفتة لاهوتيّة: المُصلح مارتن لوثر الأم المسيحيّ وآلام المسيح
١١٧	الفصل الثامن: اختباراتها مع الجسم الطيّب
١٢٥	الفصل التاسع: أزمة الإيمان
١٣٧	الفصل العاشر: لماذا أنا؟
١٤٩	الفصل الحادي عشر: نظرتها الواقعيّة إلى الحياة
١٥٥	لفتة لاهوتيّة: المُصلح جون كالفن سيادة الله وسط الألم
١٦٣	الفصل الثاني عشر: دعم العائلة والأصدقاء
١٧٣	الفصل الثالث عشر: لسنا سوى وكلاء
١٧٩	الفصل الرابع عشر: وحطت الفراشة
١٨٣	الفصل الخامس عشر: غريس تسرد قصّة معاناتها بقلمها
١٩٩	الفصل السادس عشر: شهادات مَن عرفوا غريس
٢١٣	الفصل السابع عشر: خلاصة مأساتنا
٢٢١	المراجع

## التقديم

لم تُدعِ ابنتنا غريس باسمها صدفةً؛ فكلمة “غريس” تعني النعمة، والنعمة هي عطية الله، عطية المحبة التي لا نستحقها. وغريس سعود هي عطية كسيدها، ومن يده المثقوبة، لكل واحدٍ منّا ونحن لم نكن نستحقها.

كانت غريس ملاكاً على الأرض. لطالما تساءلتُ: ”لماذا يتكلم الربُّ مع كنيسته في سفر الرؤيا عبر ملاك الكنيسة؟“. تساءلتُ لسنين طويلة: ”من ملائكة الكنيسة؟“. ملائكة الكنيسة هم أشخاص امتلأوا من نعمة المسيح من أمثال غريس. ونحن في المغرب، في هيوستن، زارنا ملائكة ونحن لم نكن ندرى، كما هو مكتوب في كلمة المسيح: ”لَتَثْبِتِ الْمَحَبَّةُ الْأَخَوِيَّةُ. لا تنسوا إضافة الغرباء، لأنَّ بها أضافَ أناسٌ ملائكةً وهم لا يدرون“ (عبرانيين ١٣ : ١-٢). نعم! زارتنا غريس ووالدها القسُّ المحبوبُ سهيل سعود وزوجته الفاضلة منغالا، وهناك كنَّا برفقة ملائكة على الأرض لمسوا قلوبنا وأرواحنا.

إنَّ كتاب ”وحطَّت الفراشة“ هو رسالة النعمة لكلِّ بيتٍ فيه مريضٌ قد أصيب بمرضٍ مستعصٍ مثل السرطان، فيه تعزية النعمة، وفيه لمسة سماوية وشهادة حياة عن هذه الصبيبة الحلوة التي سارت في درب الآلام، ولكن لأجل اتكالتها على الله، وضع هو في وسط مسيرة الحزن على وجهها ابتسامة النعمة والرجاء، فكما هو مكتوب أيضاً: ”طوبى لأناسٍ عزَّهم بك. طُرُقَ بَيْتِكَ فِي قُلُوبِهِمْ. عَابِرِينَ

في وادي البكاء، يُصَيِّرُونَهُ يَنْبوعًا. أيضًا بَبَرَكَاتٍ يُغَطِّونَ مَورَةً. يَذْهَبُونَ مِنْ قُوَّةٍ إِلَى قُوَّةٍ“ (مزمو ٨٤: ٥-٧).

هكذا كانت حياة هذه العائلة وحياة غريس. حملت مثل سيدها صليبيها، صليب الألم، واجتازت في هذا الطريق الضيق، ولكن لأجل نعمة المسيح التي حلَّت عليها، وجدت طريق العبور في وادي البكاء، ولتصيرِهِ ينبوعًا من النعمة والمحبة والسلام، فصارت بواسطتها بركة لكثيرين.

كتاب ”وحطَّت الفراشة“ هو رسالة مكتوبة لا بحبر، كما يقول الكتاب المقدس، بل رسالة مكتوبة من أعماق قلب هذا الراعي النموذجي القدوة لنا، القس سهيل، لكل عائلة تمرُّ بفترة من الألم. نعم، هذا الكتاب مكتوب بروح الله الحي، لا بحبر، لكل إنسان يمرُّ بالألم لكي يتعلَّم دروس النعمة القيِّمة وكيف أنَّ في وسط الآلام الكثيرة تقدر نعمة المسيح أن تحلَّ على المتألِّم وتعطيه قُوَّة خاصَّة ورجاءً سماويًّا، كما هو مكتوب: ”تكفيكَ نِعْمَتِي، لأنَّ قُوَّتِي فِي الضَّعْفِ تُكَمِّلُ“ (٢كورنثوس ١٢: ٩).

لقد عملتُ في أكبر مستشفى سرطاني في العالم مدَّة ثلاثين سنة ومارستُ الطبَّ هناك. وفي العشرين سنة الماضية، كنتُ في موقع قياديٍّ بوظيفة بروفيسور في الطبَّ في هذا الصرح العالمي للسرطان. عاجلتُ عشرات الآلاف من المرضى بمرض السرطان، وتعلَّمتُ من كلِّ واحد منهم دروسًا قيِّمة. ولكنني لم أتعلمَ دروسًا أعظم من مثال هذا الملاك الطاهر غريس. تعلَّمتُ منها ومن عائلتها دروسًا لا تُحصى تُرشد الإنسان حين يعبر وادي ظلِّ الموت كيف يشعر بحضور الربِّ وبهذه النعمة العظيمة التي ترفعه وتشجِّعه وتعطيه رجاءً وقُوَّة.

كتاب "وحطت الفراشة"، الذي يحكي عن النعمة التي تقدمها شهادة حياة غريس سعود، هو رسالة شفاء روحي، لا جسدي، للنفس المتعبة التي تعبر وادي ظل الموت. لعل هذه الرسالة تعطي رجاءً حياً وعجيباً لتختبر تلك النفس قوة الإيمان وتسير في وسط هذا الوادي السحيق معتمدة على محبة الله التي تنسكب في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا. هذه الثلاثة تثبت: الإيمان والرجاء والمحبة، ولكن أعظهن المحبة.

تُخبرنا الإحصائيات الطبيّة أنه في هذا القرن سيصابُ ثلثُ سكّان الأرض على الأقلّ بسرطان معيّن في أيّام حياتهم. هذا المرض المتفشي يصفه القسّ الفاضل سهيل بأنّه الوحش الذي ينقضّ علينا ليمزّق أجسامنا ويفتك بها. ولكنّ هناك راعياً صالحاً يحمينا ويعطينا القوّة حين ينقضّ علينا هذا الوحش، وهذا الراعي هو أقوى جدّاً من أيّ وحش، فيحمينا من الذئاب ومن الوحوش. اسمه الطبيب العظيم يسوع المسيح.

في هذا الكتاب هناك وصفة شفاء روحي، لذلك يجب أن يُقرأ من كلّ إنسانٍ أو بيتٍ يمرّ بهذه الظروف الصعبة؛ ففيه دروسٌ عظيمة لحياة الإيمان التي تنتصر في النهاية على كلّ مرض وعلى كلّ ما يُتعب الإنسان جسداً ونفساً وروحاً.

صحيحٌ أنّ الطبّ تقدّم كثيراً وهناك علاجٌ لأمراض كثيرة. ولكن شيئاً واحداً يعجزُ عنه الطبّ الحديث: حلُّ معضلة الموت وحتميّته. فيأتي هذا الكتاب برسالة حياة... حياة ما بعد الحياة التي في الجسد... "الحياة الأبدية" القائمة على هذا الرجاء الراسخ. وحين يفقد الإنسان الأمل في حياة الجسد، يجد في نعمة المسيح رجاءً في الوعد الأكيد بالحياة الأبدية إن تمسكَ بهذا الإيمان بالمخلص الحبيب

والطبيب العظيم الذي عنده شفاء لهذا الوحش المخيف، وحش الموت، فتُستبدل بالموت نعمة الحياة الأبدية لكل من يؤمن.

ونحن إذ نذكر غريس، هذا الملاك الحلو وهذه الفراشة المباركة وهذه الصبيّة المملوءة من روح المسيح، نسمع صوت السيّد الحنون يخاطبنا بهذه الكلمات: "لَمْ تَمِتِ الصَّبِيَّةُ لَكِنَّهَا نَائِمَةٌ" (مرقس ٥ : ٣٩). وحين نسمع صوته هذا، يذكرنا السيّد بوعدته لكل من يؤمن به: أنه لأن هذه الصبيّة آمنت به فهي نائمة في حضن المسيح ومحمولة على أذرع الأبدية إلى حين نراها عن قريب، وهناك مع المسيح هي في مكان أفضل وقريباً أيضاً "سَيَمَسُحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لَا يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلَا يَكُونُ حُزْنٌ وَلَا صُرَاخٌ وَلَا وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لِأَنَّ الْأُمُورَ الْأُولَى قَدْ مَضَتْ" (رؤيا يوحنا ٢١ : ٤). فلنُعزِّز بعضنا بعضاً بهذا الكلام.

#### د. عصام رعد

أستاذ محاضر ورئيس قسم أمراض الالتهابات في مستشفى أم. دي. أندرسون

المتخصّصة في أمراض السرطان

رئيس خدمة العناية بالصحة ومؤسّسها في الشرق الأوسط

راعي كنيسة هيوستن العربية

## مقدمة: لماذا كتبتُ هذا الكتاب؟

في احتفال إطلاق كتابي الثالث ”١٥١٧: الإصلاح الانجيلي وتأثيره في نواحي الحياة“، في تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠١٧م، كتابٌ أهديته لابنتي غريس التي كانت حينها مصابة بمرض السرطان، حضر إلى لبنان مدير أوفير للطباعة والنشر للمشاركة في إطلاقه، إذ إنَّ الكتاب كان من منشوراتهم. وبعد انتهاء الاحتفال، تحجراً وسألني قائلاً: ”قسيس، أودُّ أن أطلب منك طلباً؟“. قلتُ: ”تفضّل“. فقال: ”هل تستطيع أن تكتب قصّة معاناة ابنتك غريس مع مرضها؟“. أحببته: ”إنَّه طلب صعبٌ جدّاً عليّ، لكنني سأفكّر فيه“. وبعد أشهر قليلة، تدهورت حالة ابنتي الصحيّة، فأتصلت به، وقلت: ”لقد بدأت كتابة الكتاب“.

هكذا بدأ الأمر، لكن في المضمون، صدر هذا الكتاب عن مأساة عائليّة، عن اختبار شخصيٍّ في معاناة ابنتي الغالية، غريس سعود، التي أصيبت بسرطان نادر وقاتل في التاسعة عشرة من عمرها، وأمضت ثلاثة سنوات ونيّف في آلام وأوجاع روحية وجسديّة ونفسية مريرة ومبرّحة. وبالرغم من عدم فهمها أو فهمنا السبب وراء اختيارها هي تحديداً للتشرب كأس المرار تلك؛ وبالرغم من غضبها واستيائها من عدم تدخّل الله في شفائها، مع أنّها التمسّت وجهه مراراً، فإنّها لم تفقد إيمانها به، ولم يغب الفرح والبسمة عن وجهها، بل استمرّت في شكر الله وعرفانها نحوه، على بركات كثيرة منحها إيّاها في وسط آلامها ومرضها.

شُخص مرض غاليتي في تموز/يوليو من العام ٢٠١٥م بسرطان يدعى "سرcoma الأنسجة الرخوة" أصاب غشاء رئتها اليمنى ووركها. ولأنه تبين أنه في درجته الرابعة والأخيرة، فقد أخبرنا طبيبها أنها لن تستمرَّ طويلاً معنا، إذ قدر أن تكون المدَّة الزمنيَّة ربَّما سنة واحدة، أقلَّ أو أكثر. لهذا، فإنِّي وبألم شديد، قرَّرت أن أدوِّن بعض أوقات معاناتها وبعض أحاديث الألم والرجاء التي تحدَّثنا بها لنعيش على هذه الذكريات التي تركتها لنا، ونُكمل مسيرة ما تبقى من حياتنا عليها. قال أحدهم: "نختبر في الحياة الابتسامات والدموع والذكريات: الابتسامات تضحلُّ، والدموع تجفُّ، لكنَّ الذكريات تعيش معنا كلَّ الحياة".

الأمر غير المسبوق في حضارتنا الشرقيَّة، والذي يحتاج إلى جرأة غير اعتياديَّة، هو أن يدوِّن أحدهم قصَّة معاناته ومواجهته للموت بقلمه. لكنَّ هذا ما قامت به غاليتنا، إذ منذ ١٦ تموز/يوليو من العام ٢٠١٥م، وهو تاريخ تلقِّي الخبر المشؤوم عن تشخيصها بالمرض، اتَّخذت قرارها بكتابة معاناتها وسردها ونشرها على صفحتها الخاصَّة على الفيسبوك. وعند حلول تلك الذكرى الأليمة من كلِّ سنة، وحتىَّ الأسبوع الأخير قبل دخولها الحياة لتكون بجوار يسوعها، في ٤ كانون الأوَّل/ديسمبر من العام ٢٠١٨م، كانت لا تزال تشارك تجربتها المرَّة وتشرها على الفيسبوك، مع شكرٍ متواصلٍ لله وسط آلامها.

اكتشف العلماء طرقاً لقياس شدَّة الوجع عند الإنسان، فخرجوا بالنتيجة التالية: إنَّ أكثر أمرين يسببان الوجع هما: الوجع الناتج عند مرور حصى عبر الكلية، ووجع الأمِّ عند مخاض الولادة ومرور الطفل عبر الرحم. من وجهة النظر الفيسيولوجيَّة، يُعدُّ هذان الصنفان متساويين من حيث شدَّة الوجع. أمَّا من وجهة



مقدّمة: لماذا كتبت هذا الكتاب؟

نظر إنسانيّة، فإنّهما مختلفان اختلافاً كبيراً في المعنى. إنّ وجع مرور حصى عبر الكلية، الذي ينتج عن خللٍ ما، وسوء عمل عضوٍ في الجسم، ليس له أيُّ معنى آخر. أمّا وجع الأمّ في مخاضها، فهو وجع له معنى جوهريّ: إنّ وجع خلاق، لأنّ نتيجته هو خروج مولود إلى الحياة. لقد تألّمت غالبتنا غريس وتوجّعت كثيراً، حتّى لم تعد تستطع الاستمرار في الحياة بسبب شدّة أوجاعها، إلّا أنّها بكتاباتها وسيرتها، وشكرها المتواصل لله في قمّة آلامها، أعطت آلامها وأوجاعها معنى كبيراً وخلاقاً بتشجيعها للكثير من المتوجّعين والمتألّمين والمظلومين بضرورة الاستمرار في شكر الله مهما ساءت صحّتنا في هذا العالم المجحف الذي نعيش فيه.

أحد الأسباب الجوهريّة الأخرى التي دفعتني إلى كتابة هذا الكتاب، هو أنّنا نعيش في مجتمع شرقيّ لم يعتدّ فيه الناس مشاركة الآهم مع الآخرين بجرأة، الأمر الذي كانت غالبتي سبّاقه فيه. وقد تردّد صدى صوتها ووصل إلى الكثيرين بطرق عدّة، لا سيّما عبر الفيسبوك، عندما ترجمتُ بعض كتاباتها من اللغة الإنكليزيّة، ونشرتها على صفحتي، باللغتين العربيّة والإنكليزيّة، فكان التجاوب الذي تلقّيته من الناس كبيراً جدّاً. هذا علاوة على فيديو مقابلة تلفزيونيّة لي عن معاناة ابنتي في الألم استحوذ على نسبة ٢٨ ألف مشاهدة في أيّام قليلة، وكتاباتٍ على الفيسبوك ومقالاتٍ روحية تلمس حاجات الناس المتألّمة والحزينة، وتحدّثت بمواضيع مرارة الوجع وقدسيّة الدموع وانكسار القلب والروح وسحر الابتسامة، ومواضيع معزيّة حول الموت والرجاء، والقيامة، والحياة الأبديّة، وغيرها. وهكذا أكمل هذا كلّه وغيره سابقه مشاركة الناس في الألم، وأطلق شبكة من التواصل بين المتألّمين من مرضى سرطان وحزاني ومفجوعين،

يعيشون غالبًا في عزلة عن الآخرين، ويتوقعون حول أنفسهم في وقت ألامهم.

يمكنني أن أضع الهدف الأساسي من كتابة هذا الكتاب بالكلمات التي وجهها الرسول بولس إلى أعضاء كنيسة كورنثوس، الذين كانوا يمرُّون بفترات من الضيق والألم، إذ قال لهم: ”مباركُ الله أبو ربنا يسوع المسيح، أبو الرَّأْفَةِ وإِلَهُ كُلِّ تَعزِيَةٍ، الَّذِي يَعْزِينَا فِي كُلِّ ضَيْقِنَا، حَتَّى نَسْتَطِيعَ أَنْ نُعزِّيَ الَّذِينَ هُمْ فِي كُلِّ ضَيْقَةٍ بِالتَّعزِيَةِ الَّتِي نَتَعزَّى نَحْنُ بِهَا مِنْ اللَّهِ. لِأَنَّهُ كَمَا تَكثُرُ أَلَامُ الْمَسِيحِ فِينَا، كَذَلِكَ بِالمَسِيحِ تَكثُرُ تَعزِينَاتُنَا أَيْضًا“ ( ٢ كورنثوس ١ : ٣-٥). لقد عزَّانا اللهُ في زمن حزننا وضيقنا وألما على فقدان غاليتنا غريس، وهكذا نحن أيضًا، نستطيع أن نعزِّي كُلَّ الحزانى والمتألِّمين بالتعزية التي منحها لنا اللهُ.

القس سهيل سعود

## الفصل الأوّل

### فراشة في حديقة عائلتنا

من أجمل المخلوقات التي أبدعها الله، الفراشة. إنّ مزيج الألوان التي تحملها بعض الفراشات يجعلك تخالها لوحة مرسومة، رسمها الخالق العظيم بإتقان كبير لتعكس جمالاً خارقاً. تنال الفراشة إعجاب الجميع. إنّها لا تؤذي أحداً، ولا تحبُّ أن يؤذيها أحد. تنتقل من زهرة إلى زهرة لأنّ طعامها هو أريج الزهور. إنّ رقة رفرقة جناحها، وطريقة تمايلها، تضيفي جوّاً من البهجة والبساطة، أينما وجدت. لكن من طبيعة الفراشة أنّ عمرها قصير، فما إن تتمتّع ببعض الوقت بجمالها وسحرها، حتّى تنتهي أيامها. تُشبّه خرافةً في زائير (الكونغو الديمقراطية حالياً) في أفريقيا، دورة حياة فراشة الحرير ابتداءً من تكوّنها لتكون دودة في شرنقتها وخروجها لتكون فراشة، بمسيرة حياة الإنسان؛ إذ يكون جنيناً في بطن أمّه، ثمّ يخرج إلى الحياة طفلاً، ويعيش بعض الوقت، ثمّ يرحل.

غاليّتي غريس، هي فراشة حديقة عائلتنا الصغيرة، المؤلّفة من أربعة أفراد: أبّ، وأمّ هي زوجتي منغالا، وابنٌ هو ريتشارد، وابنة هي غريس. كان يوم ولادتها في ٩ آب/أغسطس من عام ١٩٩٦م، من أبهج أيّام الحياة. لم أكن أنا من اخترت اسم غريس، لتلك الطفلة الجميلة، وإمّا أمّها. اتّفقتنا أنا وزوجتي، أن أسمّي ابنا الأوّل،

فأسميته ”ريتشارد“، وأن تسمِّي هي ابنتنا الأصغر، فأسمتها ”غريس“. كانت غريس فعلاً اسمًا على مسمًى. تعني كلمة ”غريس“، التي هي باللغة الإنكليزيَّة، النعمة. والنعمة في اللاهوت المسيحيّ، تعني المبادرة نحو الآخر، مدفوعًا بمحبَّة مجانيَّة صافية، بالرغم من عدم استحقاق الآخر. ينتمي الاسم أو الوصف ”نعمة“ إلى عائلة من الأسماء أو الصفات اللاهوتيَّة الجميلة التي ترتبط بعمق معنى الكلمة. من هذه الصفات: المحبَّة والحنان والرحمة والشكر والإحسان واللفظ والإرادة الحسنة. فالنعمة، مع ارتباطاتها، تُغيَّر وتجدَّد وتفرَّح وتصنع فرقًا عظيمًا في حياة الإنسان. أحبَّت غالبتي غريس اسمها كثيرًا، ونشرت بحياتها سمات النعمة، وسط آلامها وأوجاعها الشديدة، أينما حلَّت وحيثما ذهبت.

تمثَّلت غريس أمامنا بفراشة ناعمة غاية في الجمال، لوحة رسمها إلُّهنا العظيم وخالقنا الرِّسَّام المبدع. أدخل الله هذه النعمة إلى عائلتنا الصغيرة التي اكتملت بوجودها معنا. منذ نعومة أظفارها، صارت تنتقل فراشتنا من زهرة إلى زهرة في حديقة عائلتنا، وتعيش على أريج أزهارها. تنتقل برقةً ونعومة ساحرة أدخلت البهجة والفرح والراحة إلى حديقة عائلتنا الصغيرة. أتذكَّر أنَّها عندما بلغت أربعين يومًا من العمر، مرضت وقد بدت وكأنَّها تُنازع، فهرعنا بها إلى المستشفى. فاكشف الطبيب أنَّ جسمها كان يعاني نقصًا حادًّا في الماء. وما لا أنساه من ذلك الوقت هو دهشة الممرضات بجمال تلك الرضيعة ورقَّتتها وجاذبيَّتها. كانوا يسمُّونها ”اللعبة“، لجمالها وعذوبتها.

أذكَّر أنَّها عندما بلغت ثلاث سنوات من العمر، أرسلناها إلى مدرسة بجانب سكننا. لقد كانت متعلِّقة جدًّا بأُمِّها، إلى درجة أنَّه كان على أمِّها أن تقضي بعض

الأيام الأولى معها، إلى أن تعودت أجواء المدرسة. في أثناء دراستها، نالت إعجاب معلماتها بذكائها وتفوقها وقدرتها على استيعاب الدروس بصمت ودون فوضى. كما لفتت أنظارهم بتهذيبها وخجلها واستقامة ضميرها، وكونها كانت دائماً على قدر كبير من المسؤولية. هكذا كانت في كلِّ مراحل دراستها المدرسيَّة. وقد كانت منذ الطفولة تقوم بواجباتها المدرسيَّة وحدها، ونادراً ما طلبت أيَّة مساعدة من أمِّها، التي هي بدورها معلِّمة رياضيات. كانت تتنافس دائماً مع أحد زملائها على المرتبة الأولى.

تميّزت غاليتنا غريس بعلاقاتها الفريدة جداً مع تلاميذ صفِّها. كسبت ثقتهم، فأقاموها مرشدة لهم. أتوا إليها بمشاكلهم ومخاوفهم، ولم تردّد عن مساعدتهم، حتى في أثناء مدَّة مرضها، فوجدوا في إصغائها وهدوئها وحكمتها قلباً يحبُّهم وصدراً يضمُّهم. استمرَّت في علاقاتها الحميمة برفاق صفِّها حتَّى بعد دخولها الجامعة اللبنانيَّة الأميركيَّة في بيروت لتكملة دراستها. وقد نالت من الجامعة، منحة دراسيَّة كاملة لخمس سنوات في حقل الصيدلة بسبب تفوقها في مدرستها.

ترعرعت غاليتنا غريس في كنيسة الإنجيليَّة المشيخيَّة في بيروت على الإيمان والترانيم الروحيَّة وقصص الكتاب المقدَّس والوعظ. لم أنس يوماً ذلك السؤال البريء الذي سألتني إيَّاه عندما كانت طفلة في مدرسة الأحد. قالت لي: "بابا، كيف يستطيع الذين يذهبون إلى السماء، أن يتعلَّقوا في الهواء؟ أفلا يسقطون إلى الأرض؟". لم تغب عن حضور خدمات العبادة واشتركت في المسرحيَّات الميلاديَّة وفي جوقة الترنيم. وكانت المرنِّمة الأولى لأنَّها امتلكت صوتاً جميلاً. بعد انضمامها إلى صفِّ الاشتراك مع بعض فتية الكنيسة وفتياتها، لتنال التعليم المسيحيَّ عن

الإيمان والعقيدة الإنجيلية، اجتمع معهم بعض أعضاء الكنيسة المسؤولين، فسألها أحدهم: "من هو يسوع لك؟"، فأجابت: "إنه رفيقي ومخلصي". اشتركت أيضاً مع لجنة سيّدات يوم الصلاة العالمي، فكانت تشارك في خدمات العبادة التي يقيمونها، بالترنيم منفردة وقراءة من الكتاب المقدس باللغتين العربيّة والإنكليزيّة. كما كانت جزءاً من جوقه كليّة اللاهوت للشرق الأدنى. هذا علاوة على نشاطات كنسيّة أخرى كانت تقوم بها.

من الاهتمامات التي برزت لديها في السنتين الأخيرتين قبل مرضها، اللغة والثقافة الكوريّتين. تعلّمت وحدها بعض كلمات اللغة الكوريّة وقواعدها، حتّى باتت تتكلّم وتفهم بعض عباراتها. ترافق مع ذلك، اهتمامها بالرقص الفولكلوريّ الكوريّ الذي أعجبها، فتعلّمته وحدها حتّى أبدعت فيه، وحصلت على شهادة الموهبة المميّزة في الرقص الكوريّ من جامعتها. في أثناء تلك الفترة، تصاحبت مع عائلة كوريّة مسيحيّة مُرسلة فيها فتاتان من عُمرها ساعدتاها في تحسين لغتها الكوريّة. وتلبيةً لرغبة بعض أصدقائها وصديقاتها في تعلّم اللغة الكوريّة وتجاوب مرسلٍ كوريّ، جعلت من قاعة كنيستنا مركزاً لتعلّم اللغة الكوريّة، فبلغ عدد المشتركين نحو ١٥ شخصاً كانوا يجتمعون أسبوعياً. لم تسعها الدنيا آنذاك، لشدّة حيويّتها وطموحاتها وأحلامها.

لكن في قَمّة صعودها، انقضّ عليها وحش مرض السرطان البغيض، لهذا لم تستطع سوى إنهاء سنتها الجامعيّة الأولى، التي كانت بتفوّق، إذ نالت معدّل ٣,٩ تماماً قبل أن يطرحها المرض في فراشها، ويمنعها من إكمال دراستها وحياتها. إلّا أنّه بالرغم من مساواة أوضاعها الصحيّة، حاولت غالبتنا غريس بقدر الإمكان

فراشة في حديقة عائلتنا

إكمال ثلاثة سنوات ونصف من عُمرها، بصورة طبيعيّة بالرغم من عدم قدرتها على العودة ثانية إلى جامعتهَا. فاستمرّت في علاقاتها بزملاء صفّها، ودعت مرّة ثمانية عشر منهم للاحتفال بعيد ميلادها الأخير في ٩ آب/أغسطس ٢٠١٨ م. كما أنّها استقبلت بعضهم بعد خروجها من العناية الفائقة في المستشفى، وقبل ثلاثة أيّام من رحيلها، إذ أتوا ليهنئوها على شجاعتها في مواجهة الموت بجرأة غير معهودة.

